

نظرة الرحالة المسلمين  
إلى البلاد الأجنبية :  
أخبار الصين والهند أنموذجا



## نظرة الرحالة المسلمين إلى البلاد الأجنبية : أخبار الصين والهند أنموذجا <sup>(1)</sup>

أدب الرحلات في القرون الوسطى مدونة ثرية يمكن دراستها من زوايا مختلفة فالمهتم بالمُعْجَمِيَّة يجد فيها مادة غزير تتصل بحقول دلالية متنوعة منها الجغرافيا الطبيعيَّة ( التضاريس - التربة - المياه - المناخ .... ) والفن المعماري ( أشكال البناء ومواده وآلاته ) والحياة اليوميَّة ( الأطعمة واللباس ) والحياة الاقتصادية من فلاحه ( المواسم والآلات والنباتات ) وصناعة (الحرف وآلاتها) وتجارة ( الموازين والمكاييل والنقود ) ويوجد فيها المهتم بالإنشائية مجالا لدراسة الأشكال الأدبيَّة إذ اتخذ أدب الرحلات أشكالا مختلفة لا تزال في حاجة إلى الضبط والتبويب حسب سماتها البنيويَّة وإلى بيان علاقتها بالنظام الأدبي ( مجموعة الأشكال الأدبيَّة ) السائد في الفترة التي كتب فيها هذا الأثر أو ذاك وللدِّراس أيضا في هذه المدونة وبالأخص في الآثار التي

---

(1) الطبعة المعتمدة طبعة باريس 1948 : تحقيق جان سوفاجي Jean Sauvaget وستكون الإحالات على الفقرات دون الصفحات .

يطغى فيها عنصر العجيب مثل سلسلة التواريخ لأبي زيد السيرافي (2) وعجائب الهند المنسوب لبزرك بن شهریار مادة دسمة يمكن استغلالها في دراسة الخيال وبناء ووظائفه الأدبية والاجتماعية وللمؤرخ كذلك في أدب الرحلات ما يعينه على رسم ماضي هذا البلد أو ذاك نظرا إلى ما يحتوي عليه من شهادات ومعلومات مستمدة من التجربة الشخصية على أنه يجب الحذر لأن الرحالة ينقل أحيانا من مؤلفات سابقه دون ذكر مصادره فيوهم القارئ أن المعلومة وليدة العيان في حين أنها ترجع إلى فترة سابقة قد تتجاوز القرن فأكثر .

وتوجد مقارنة أخرى غايتها الكشف عن محدّدات النظرة إلى العالم وتجلياتها وهي التي اخترناها موضوعا لهذا المقال وهذه المقاربة خلافا للمقاربة التاريخية لا تفصل الموضوع عن الذات فالدراسة التاريخية لا تهتم بصاحب الأثر إلا لتتأكد من تحرّيه ومصداقيته لأنّ غرضها استغلال النصّ لاستخراج معطيات موثوق بصحتها تساعد على رسم واقع بلد في حقبة من الزمن مُعينة أمّا محاصرة النظرة فهي تنطلق من النص كما هو وتحاول أن تكشف عن العوامل التي توجّد نظر المخبر وتفسّر مواقفه والذي دعانا إلى اختيار هذه المقاربة المدوّنة ذاتها فالرحالة في النصوص التي تركوها لنا سجّلوا ملاحظاتهم وعبّروا عن مشاعرهم ومواقفهم فكانت نصوصهم رواية التفاعل بين الذات والمشاهد .

هذا موضوع البحث وعلينا الآن أن نبين النهج . إن الموضوع كما قلنا غايته ضبط محدّدات النظرة وتجلياتها والتجليات يكشف عنها النص ذاته. فالرحالة مهما كانت درجة فضوله لا ينقل كل ما رآه وسمعه وعاشه في البلاد التي زارها بل يسجّل ما يراه جديرا بالتسجيل وهو إلى جانب هذا يعبر عن مشاعره ومواقفه بصفة صريحة أو ضمنية وهذا الانتقاء وهذه المواقف

---

(2) يوهم العنوان بأنّ الكتاب كتاب تاريخ وهو في الحقيقة مجموعة أخبار عن الشرق الأقصى وسواحل البحر الهندي الإفريقية دونها أبو زيد الحسن بن زيد السيرافي بمسقط رأسه أو بالبصرة في أوائل القرن الرابع للهجرة ولم يكن الرّجل رحالة بل أدبيا مولعا بالقصص البحرية.

تحدّدها انتماءاته الاجتماعية والثقافية والزمنية والمكانية وبعبارة أخرى يمكن أن نلخص التمشي المنهجي في الأسئلة الآتية :

- من هو الرحّالة وما هي انتماءاته ؟

- ماذا سجل وعلام يدلّ الانتقاء ؟

- ما هي العناصر من نظامه الثقافي ( المعارف - الذوق - السلوك -

العادات - المعتقد ) التي ينطلق منها في تعاليقه وأحكامه المعيارية ؟

لكن : لماذا وقع الاختيار على كتاب أخبار الصين والهند المؤلف سنة 237

هـ / 851 م ؟

إن ما وصلنا من أدب الرحلة إلى العالم غير الإسلامي قبل هذا التاريخ نتف لا تتجاوز أحيانا بعض الأسطر فصلا عن أنّ منها ما هي نسج الخيال ومنها ما هي غير موثوق بمطابقتها للنصّ الأصلي .

ومن الرحلات الخيالية رحلة الصحابي تميم الدّاري <sup>(3)</sup> ( ت حوالي 40

/ 661 ) في عهد الرّسول ورحلة الصحابي عبادة الصّامت الأنصاري <sup>(4)</sup> في عهد أبي بكر وفي الأولى يقصّ تميم الدّاري مغامرة له ببحر الشام فقد قذفت به عاصفة هو وصحبه بجزيرة مهجورة فراوا الدّجال مقيدا وهذه القصة التي نرجّح أنها وضعت في القرن الثالث تثبت انتشار الأساطير الخاصّة بنهاية العالم وبالعالم الآخر في المجتمع الإسلامي والمأخوذ أغلبها من بني اسرائيل <sup>(5)</sup> أما الرحلة الثانية فمفادها أنّ أبا بكر أرسل عبادة بن الصّامت إلى ملك الروم يدعوه إلى اعتناق الإسلام وأنّ عبادة بن الصّامت لمادنا من القسطنطينية لاح له

---

(3) تاريخ الطبري، ط . ليدن لين 1892 ج 1 ص 178 .

(4) ياقوت الحموي - معجم البلدان - ط ليبزيق 1866 - مادة الرّقيم -

(5) تسمّى هذه القصص الإسرائيلية وقد تسرّبت إلى الحديث وتفسير القرآن وكان كعب الأحبار ووهب بن منبّه من المسؤولين عن هذا التسرّب .

جبل قيل إن فيه أصحاب الكهف فزار هذا الكهف ووصفه كما وصف أهله وهياتهم ولباسهم إلى جانب هذا النوع من الرّحلات (6) تذكر المصادر عدد من الرّحلات ثبتت صحتها منها ما كانت إلى آسيا الوسطى - رحلة تميم بن بحر المَطَوّعي إلى بلاد التغرغز (7) بين سنة 143 / 760 و 184 / 800 ورحلة سلام الترجمان إلى سدّ ياجوج وما جرج (8) في عهد الخليفة الواثق ( ت 233 / 847 ) - ومنها ما كانت إلى بلاد الرّوم - رحلة عمادة ابن حمزة (9) ( ت 199 / 884 ) ورحلة الأسير مسلم الجرمي (10) في عهد الواثق - ومنها ما كانت إلى أروبا وهي الرحلة السفارية التي قام بها يحيى بن الحكم البكري الملقب بالغزال إلى ملك جوتلند ( Jutland ) بالدنمارك (11) بعد هجوم النورمان على الأندلس ونهب إشبيلية سنة 230 / 844 في أيام عبد الرحمان الثاني . لكن لم تصلنا من هذه الرّحلات كما يتضح من الإحالات إلّا شذرات حفظها لنا مؤلفون منهم من هم متأخرون ثمّ إنّ هذه الشذرات لا

(6) يورد المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ( ط ليدن ص 153 - 154 ) قصة شبيهة بقصة عبادة بن الصامت وقعت حوادثها حسب زعمه سنة 102 / 720 .

(7) التغرغز قبيلة تركية كانت نازلة بوادي الأورخون ( Ochlon ) جنوب بحيرة بيكال إلى سنة 246 / 840 أمّا الرحلة فلم تصلنا منها إلّا قطعة قصيرة حفظها لنا ابن خرداد به في مسالكه ط ليدن ص 31 .

(8) لم يبق من هذه الرحلة إلّا قطعة حفظها ابن خرداد به في مسالكه ط ليدن ص 162 - 170 لقد خرج سالم من بغداد يستخبر عن سدّ ياجوج وما جوج بأمر من الخليفة الواثق ووصل إلى حائط الصّين الكبير فوصف جزءا منه على أنّ سدّ ياجوج وماجوج .

(9) بقيت من هذه الرّحلة قطعة مجدها في كتاب مختصر البلدان لابن الفقيه - ط ليدن ص 137 - 139 .

(10) أسره الرّوم وساقوه إلى بيزنطة وكان فداؤه سنة 231 / 845 ورحلته رحلة أسير وصّف فيها ما شاهده من بلاد الرّوم وذكر ما سمعه عنها - لم تصلنا من رحلته إلّا قطعة موجودة في مسالك ابن خرداد به ط ليدن ص 105 - 108 .

(11) لم يبق من هذه الرحلة إلّا قطعة حفظها لنا ابن دحية في كتابه المطرب في أشعار أهل المغرب - تحقيق إبراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد وأحمد بدوي - ط القاهرة 1954 - ص 138-146 .



المنطقة نشيطة <sup>(4)</sup> وأقاموا بالبلدان التي حلّوا بها فاطلعوا على أوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية وعلى عادات السكان الأصليين وهذا ما يضمن لأخبارهم قيمتها الوثائقية وهم فضلا عن كونهم تجارا لهم مشاغلهم ينتمون إلى فترة تاريخية كان فيها الإسلام قويا سياسيا واقتصاديا وعسكريا وحضارته مزدهرة وبالأخص في بغداد التي يرجّح أن يكون أغلبهم منها وهم أخيرا من أمة لها ثقافتها ( الدين والعادات والسلوك ) تميزها ولكنها مازالت مفتوحة على الثقافات الأخرى <sup>(5)</sup> وإن لم تفهمها دوما الفهم الصحيح .

أما تكوين الرحّالين وآفاقهم الفكرية فليس لنا عون على معرفتها سوى النصّ وما يستنتج منه هو أنهم ليسوا من أهل الأدب ولا من أهل الاختصاص في علم من العلوم وأنّ الدافع إلى معرفة العالم الأجنبي دافع نفعي لا علمي على أنّ هذا لا يقلل من قيمة المعلومات التي يقدمونها وهي جميعا صادرة عن العيان والتجربة الشخصية .

هذا هو الإطار الذي تشكّلت فيه ذهنية الرحّالة في أخبار الصين والهند في رأينا فما هو مدى تأثيره على نظرتهم إلى البلاد الأجنبية التي زاروها ؟ لقد رأينا من المفيد أن نقسّم مادة الكتاب إلى قسمين كبيرين هما : المحيط الطبيعي والبشر ونعني بهذه العبارة الأخيرة كلّ الظواهر البشرية ؛ التنظيم السياسي والاقتصادي والاجتماعي والحياة اليومية والعادات والمعتقدات .

---

(14) من أسباب هذا النشاط الإستقرار السياسي بالعالم الإسلامي رغم بعض القلاقل وتطاول الفتیان على الخلفاء وكذلك بالصّين التي كانت تحكمها دولة التانق ( Les Tang ) وذلك من 618 م إلى 907 م / 295 هـ . وفي النصّ وصف للطريق البحري من سيراف إلى مدينة خانفو بالجنوب الشرقي من الصّين فمن سيراف إلى سواحل الهند الغربية ملّيبار ومنها إلى جزر لنحيالوس ( نيكوبار ) ثم إلى مملكة الزابج ( صومترا ) ومنها بعد قطع مضيق ملقه Malacca إلى مملكة صنف ( Tchampa ) بسواحل فيتنام ثمّ خانفو ( Cantou )

(15) بدأ الانطواء على الذات مع الحروب الصليبية في القرن الخامس للهجرة الحادي عشرم



## ١ النظرة إلى المحيط الطبيعي :

إنهم قلّمًا يهتمون بالطبيعة ومناظرها والحال أنّ البلدان التي زاروها تختلف من هذه الناحية عن أوطانهم فجبال الثّبت لا تثير مشاعرهم ويكتفون في وصفها بملاحظة جافّة . وفي بلادهم جبال بيض ليس ، شيء أطول منها ، ( الفقرة 31 ) والجبال الأخرى المذكورة في النصّ لا تستوقف نظرهم إلاّ لآر تباطها بمعتقد . - جبل الرّهون بسر نديب ( سيريلنك اليوم ) الذي يقال إنّ آدم نزل به <sup>(١٦)</sup> أو لأمر يبدو لهم عجيبا . جبل قرب صومترا يظهر منه لهب ويخرج منه عين باردة وعين حارة <sup>(١٧)</sup> . أو لاحتوائها على معدن نفيس <sup>(١٨)</sup> . والغابات المشهورة مثل غابات مليبار والزّاج لا تستوقف هي كذلك نظرهم فلا يقولون عنها شيئا ولكنهم يهتمون بالمواد التجارية المستخرجة منها والمصدّرة الى العالم الاسلامي كالعود والكافور والبّقْم وهم لا يولون أهميّة إلى النباتات والحيوانات رغم وجود أنواع تختلف عن التي يعرفونها فلم يصفوا إلاّ السّاخ ( الشاي ) بالصّين والكركدن لأمر فيه عجيب إذ هو على زعمهم قطعة واحدة لا مفاصل له . وفي قرنه علامة صورة خلقة كصورة الانسان في حكايته كلّ أسود والصّورة بيضاء ، في وسطه ، ( الفقرة 28 ) . وهذا القرن مصدر ربح وافر إذ تصنع منه مناطق . تبلغ المنطقة الواحدة ببلاد الصّين ألفي دينار وثلاثة آلاف وأكثر على قدر حسن الصّورة ، ( ف 28 ) والمعلومات عن المياه قليلة نذكر منها على سبيل المثال تلك التي سيقّت في المقارنة بين الهند والصّين . وأنهار البلدين جميعا عظام فيها ما هو أعظم من أنهارنا والأمطار بالبلدين كثيرة ، ( ف 72 ) إنّ هذه الملاحظة تُوحى بالخصب وبدور الانهار في ميداني الفلاحة ( الري ) والتجارة ( الملاحه النهرية ) ولكنها تبقى جافّة فلا يعنى المخبرون بمعرفة أسماء هذه

(16) الفقرة 5 .

(17) الفقرة 20 .

(18) الفقرة 9 .

الأنهار ومصادرها ومصباتها والأراضي التي تشقها لأنّ مشاغلهم غير مشاغل الجغرافيين وما قالوه عن البحر وإن كان لا يخلو من عنصر العجيب يعبر من مشاغل التاجر فقد وصفوا بكثير من الدقة الإعصار في المحيط الهندي ( ف 20 ) والمدّ والجزر في الخليج العربي الفارسي وبحر الصين ( ف 17 ) واهتمامهم بمثل هذه الظواهر الطبيعية لم يكن فقط لغرابتها بل لأنها تؤثر في حركة الملاحة فالإعصار عقبة كؤود والجزر يحول دون إرساء السفن في الموانئ غير العميقة أمّا عنصر العجيب فيمثل بعض الحيوانات كالوال وجراة البحر واللسك وغيرها ( ف 1 - 2 - 3 - 19 ) .

و خلاصة القول في هذا الغرض الكبير الأوّل هي أنّ نظرة المخبرين تحكّمها  
المنفعة ولا غرابة في هذا وهم تجار و بدرجة ثانية العجيب بأنواع المختلفة :  
العجيب الديني ( جبل الرّهون ) والعجيب المتولد عن المبالغة ( Hyperbolique ) أو عن الجمع بين الأضداد ( الحرارة والبرودة ) وهم في  
هذا لا يختلفون عن أهل عصرهم .

## II النظر إلى البشر :

إنّ المادّة في هذا الغرض غزيرة ومتنوعة لكن لم تحظ كل البلدان المذكورة بنفس العناية فكان للهند وللصّين بالخصوص نصيب الأسد .

ففيما يخص التنظيم السياسي لا يهتم الرحالة غالبا إلا بالقيمة أي الملوك ومؤسسة الملك عندهم مؤشر من مؤشرات التحضر ولذلك يحرصون على التمييز بين البلدان التي على رأسها ملك والبلدان ( الجزر ) التي ليس بها ملك ، وملاحظاتهم في شأن الملوك تَسْتَظِهُمُ ثلاثة محاور : درجة عظمتهم المُمَثِّلَة في سعة المملكة والقوة العسكرية وعلاقتهم فيها بينهم وهي علاقات سلم إلا في الهند <sup>( ٩ )</sup> وأخيرا موقفهم من المسلمين فيميزون بين الملوك الذين

(19) ورد في النصّ: «فلتهروا حوله ملوك كثيرة يقاتلونه ولكنّه يظهر عليهم» (ف 25) وبتّهرّا ملك سواحّل الهند الغربيّة من بومبائي إلى مدينة قوّا (Goa) وكذلك منطقة دكّان (Dekkan) أمّا بقية الملوك المذكورين فهم ملك الجُزر بوادي السند وملك الطاقّي (كشمير) وملك دَهْرَم بالبنغال.

" يحبون المسلمين " ويحسنون معاملتهم مثل بلّهرّا وملك الطاقبي والملوك الذين يعادونهم مثل ملك الجرّز على أن هذا الإهتمام بالقمة لا يعني أنهم يقفون دوما عند السطح ففي حديثهم عن الصين والهند مقابلة بين الوضع السياسي في كلّ من البلدين فالهند مقسّمة إلى ممالك متناحرة في حين أن الصين التي يحكمها ملك واحد بلد مستقرّ آمن ومنظّم إداريًا تنظيمًا تراتبيًا محكمًا فعلى رأس كل مدينة كبيرة أمير وآل يهتمّ بالشؤون الادارية وخصيّي يعنى بالشؤون المالية وتحت كل مدينة كبيرة مدائن لكل منها وال وخصيّي واسم الأمراء الولاة على قدر المدائن (20) هذا الإهتمام بالوضع السياسي والإداري يفسّره انتماء الرّحّالين الإجتماعي إذ التجّار حريصون على معرفة أحوال البلد الذي يحلون به حتى يطمئنوا على نفوسهم وأموالهم ولكن يمكن أن نردّه كذلك إلى انشغالهم بوضع الخلافة التي دخلها الوهن فكانوا يتوجسون خيفة من انفصال بعض الأقاليم عن السّلطة المركزيّة ببغداد بعد إطلاعهم على ما يحدث في الهند .

وفي ميدان القضاء فإنّ المعلومات مقصودة على الصين والهند فالإمبراطور بالصين هو مصدر السلطة القضائية يفوّضها إلى قاضي قضاة يعيّن لكلّ مدينة قاضيا على أن القاضي لا يتفرّد بالقضاء فالوالي أيضا يجلس للحكم بين الناس ولكنّ النصّ لا يوضح النوازل التي يرجع فيها النظر إلى القاضي وتلك التي هي من مشمولات الوالي ولا شكّ أن الرّحّالين تفتنوا إلى وجوه الشبه بين هذا النظام والنظام القضائي في الإسلام على أنّ ما شدّ انتباههم هو المغاير كحدّ السرقة وقطع الطريق الذي هو القتل في الصين والهند والامتحان بالنار لإثبات البينة أو عدمها بالهند (21) والاعتماد على الوثيقة المكتوبة دون الشهادة الشفويّة بالصّين وأخيرا فإنّ انشغالهم بوضع المسلمين في البلاد التي

---

(20) يسمّى والي المدينة الكبيرة دَيَقُو وَ والي المدينة الصغيرة طَوْشِي ( ف 23 ) .

(21) الفقرة 50 . يطلب من التّهم ان يغمس يده في زيت حارّ جدّا فإن لم يُصبّه اذى عدّ برينا وإذا تلفت يده ثبتت عليه الدّعوة .

زاروها يُفسّر حرصهم على معرفة هل أنّ القضاء بين المسلمين يقوم به رجل منهم طبق الشريعة كما هو الشأن في الصين ( ف 12 ) أم لا .

وفي ميدان الإقتصاد تكثر الملاحظات حول الأثمان ( ف 28 - 34 ) والعمللة - الودع بجزر المهل ملديف اليوم ومملكة دهرم ، والدراهم بمملكة بلّها والفضة التبر بمملكة الجزر والفلوس من نحاس بالصّين ( ف 4 - 25 - 26 - 28 - 34 ) - ونوع المعاملات - البيع والشراء بالعمللة في أغلب البلدان والمقايضة بجزر لنحبالوس نيكوبار اليوم - وأخيرا حول القانون التجاري بالصّين الذي أطلوا فيه الحديث ليبرزوا صرامته وعدله في آن واحد فالدولة تأخذ من البضاعة المستوردة الثلث ولكنها مقابل هذه الضريبة الثقيلة تضمن للتجار الأمن والمعاملة العادلة فإذا احتاجت إلى بضاعة أخذتها بأعلى الثمن و « عجلت بدفعه » ( ف 34 ) و « إذا دخل البحرّيون قبض الصينيون متاعهم وصيّروه في البيوت وضمنوا الدّرك إلى ستة أشهر إلى أن يدخل آخر البحرّين » ( ف 34 ) حتى يكون سعر بضاعة عند البيع واحدا وجاحد الدين إذا أقيمت عليه الحجة وضرب ضربا قد يودي بحياته ويلزم بدفع ما يقارب عشرين ألف دينار ( ف 44 ) وإذا أفلس تاجر عوقب أشدّ عقاب وسدّت الدولة ديونه وحرّمت عليه تعاطى التجارة ( ف 45 ) وإذا ضاع من مال المسافر شيء ردّ إليه ومتى مات ردّ ماله كلّ إلى ورثته من بعده ( ف 43 ) .

ويقابل هذا الاهتمام بالميدان التجاري إهمال لميداني الفلاحة والصناعة فلا نجد في النص شيئا عن القانون العقاري والأدوات <sup>(22)</sup> ولا عن عمّال الأرض والأشغال الفلاحية وإن كانت الفلاحة عندهم مقياسا من المقاييس المعتمدة في تعيين البلدان <sup>(23)</sup> وكذلك الأمر بالنسبة إلى الصناعة فلا حديث عن الحرفيين

---

(22) لفت انتباه الرحالة أن لا ضريبة على الأرض بالصّين ( ف 49 ) وهذا مفاير لما هو محمول به في البلاد الإسلامية .

(23) يعتبر الرحّالون أنّ الصّين أجملّ من الهند لكثرة الأراضي الخدومة ( ف 72 ) .

وحياتهم وأشغالهم وتقنياتهم في تحويل المواد الأولية فالرحالون بوصفهم تجاراً، لا يعنون إلا بالبضاعة الجاهزة وبالأخص المنتجات الجيدة مثل النسيج بجزر المهل وبملكة درهم والحرير والعقار بالصين أو تلك التي تصدر إلى العالم الإسلامي كالحرير والبقم والعود والكافور والفلفل والمعادن النفيسة .

والمعطيات الخاصة بالتنظيم الاجتماعي مقصورة هي أيضاً على الهند والصين وقد لفتت انتباه الرحالة لأنها غريبة عنهم ففي الكتاب فقرة ( 53 ) موضوعها الطبقات المغلقة بالهند لكن لم تذكر منها إلا طبقتان : طبقة البراهمة وهم رجال الدين والعلم وطبقة الكتشيرية ومنها الملوك والممارسون للسلطة السياسية وغابت طبقة الفيشية ومنها الفلاحون والتجار وطبقة الشودرا ومنها الحرفيون ولعلّ هذا الغياب راجع إلى سهو ولكن نرجح أن يكون مرده الاهتمام بالقيمة مثلما هو الحال في حديثهم عن التنظيم السياسي أمّا عن الصين فقد استرعى انتباههم العدل الاجتماعي ، فالفقيرو والغني من أهل الصين والصغير والكبير يتعلّم الخطّ والكتابة ، ( ف 36 ) والفقير يعطى ثمن الدواء من بيت المال ، ( ف 46 ) ، والرجل إذا بلغ ثمانين سنة لا تؤخذ منه الضريبة على الرأس ويجرى عليه من بيت المال ويقولون أخذنا منه شاباً ونجري عليه شيخاً ، ( ف 47 ) .

ويجنى القاريء من الكتاب معطيات كثيرة عن الحياة اليومية والعادات على أنّ أغلب هذه المعطيات قد احتفظت بها ذاكرة الرحالين لكونها تختلف عن مظاهر الحياة اليومية وعن العادات في بلاد الإسلام من ذلك مثلاً أن أهل جزيرة رامني طعامهم الأساسي النارجيل وبه يتأدّمون ويدهنون أجسامهم ( ف 6 ) وأنّ الصينيين يشربون الشاي ( ف 41 ) والتبذ المعمول من الأرز ( ف 22 ) ويلبسون الحرير صيفا وشتاء ( ف 21 ) ويسكن أغلبهم بيوتا من خشب ( ف 60 ) وأنّ أهل الهند يلبسون فوطتين ويتحلّون في المواعيد بأسورة الذهب والجوهر رجالا ونساء ( ف 72 ) ويظهر الاهتمام بالغاير بصفة أوضح في الحديث عن العادات التي تدور الملاحظات في شأنها حول محورين الأوّل المرأة والزواج والثاني الرسوم المتبعة عند موت ميت .

ففي جزيرة نيان لا يتزوج الواحد منهم إلا بقحف رأس رجل من أعدائهم وعلى عدد مقتوليه يكون عدد زوجاته ( ف 6 ) والمرأة في الصين تخرج حاسرة الرأس وتجعل في شعرها الأمشاط من العاج ( ف 23 ) والرجل في هذا البلد يمكنه أن يتزوج ماشاء من النساء وكذلك في الهند ( ف 57-61 ) وأهل الهند لا يأتون النساء في الحيض ولكنهم يخرجونهن عن منازلهم تقززا في حين أن أهل الصين يأتونهن في الحيض ولا يخرجونهن ( ف 71 ) وفي المحور الثاني سجل الرحالة أنه بالهند يحلق الرجال رؤسهم ولحيهم حزنا على الميت ( ف 65 ) وأن الميت يحرق وإذا كان من الملوك ربما تدخل نساؤه في النار فيحترقن معه ( ف 51 ) .

أما في الصين فيحنط الميت ويجعل في تابوت ويبقى في المنزل سنة كاملة وفي كل هذه المدة لا يقطع أهله عنه الطعام ولا ينقطعون عن البكاء ومن لا يبكي من الرجال والنساء ضرب بالخشب حتى إذا ما انقضت سنة على موته دفن في ضريح كضريح العرب ( ف 35 ) .

وبقي في غرض البشر عنصر أخير المعتقدات ففيه قلت الملاحظات وكانت خاطئة (24) باستثناء واحدة نزاها جديرة بالوقوف عندها جاء في النص ، وليس لأهل الصين علم وإتاما أصل ديانتهم من الهند وهم يزعمون أن الهند وضعوا لهم البدة وأنهم أهل الدين وأهل كلا البلدين يرجعون إلى التناسخ ويختلفون في فروع دينهم ، ( ف 72 ) هذه المعلومة صحيحة فيما يخص الديانة البوذية (25) التي كانت ولا تزال إحدى الديانات بالصين فالبوذية قد استعارت فعلا الكثير من الهندوكية من حيث الأصول فهي مثل سابقتها تقول بتداول العالم بين الاختفاء والظهور وتداول الروح بين السمو والانحطاط

---

(24) في الفقرة 70 شبه دين الصين بالمجوسية .

(25) ظهرت هذه الديانة على يد بودا في شمال الهند وبالضبط في إقليم النبال في القرن السادس قبل الميلاد ثم دخلت الصين في القرن الثاني بعد الميلاد وكتابتها هو تريبتكا ( Teiptaka ) ومعنى الكلمة السلالات الثلاث .

وتنقلها من جسد إلى آخر وبتحرّرها من هذا الوضع بفضل النيرفانـا ( الطمأنية القصوى ) ولكن كما قلنا لم تكن البوذية الديانة الوحيدة بالصّين بل كانت هناك ديانة كنفوسيسوس (26) ودين آخر هو التـاـووية ( Taoisme ) (27) وهما معا يكونان ركيزة الفكر الصيني آنذاك . فكيف يمكن تفسير غياب هذين الدينين في النصّ وقلة عناية أصحابه بمعتقدات الغير بصفة عامة ؟ الرّأي عندنا أن مستواهم الثقافي وإيمانهم بأنّ دينهم هو الدين الحقّ حالا دون التعرف على معتقدات الآخر بصفة جدية وعميقة .

إنّ المعلومات في غرض البشر كثيرة ومتنوّعة ولكن الرحالة لم يقيّدوا إلّا ما رأوه جديرا بالتقييد ويرجع هذا الانتقاء إلى عاملين اثنين :  
- مشاغلهم بوصفهم تجارا ولذلك عنوا بما يقصل بميدانهم وأهملوا عالم الفلاحين والحرفيين .

- نظرة يجلبها بالخصوص المغاير المكوّن لخصوصيات الآخر وقد أوردنا أمثلة كثيرة .

وما يلاحظ في هذه النقطة الأخيرة غياب الأحكام العيارية إلّا في موضعين ففي الحديث عن سكّان جزيرة نيان استعملت كلمة توحّش لأن هؤلاء يأكلون لحم الإنسان نياء ويعيشون في الأجسام والمهر عندهم قحوف رؤوس أعدائهم وفي الحديث عن ديانة الصّين قالوا : « إنّ أهل الصّين يعيدون الأصنام ويزعمون أنّ البددة تكلمهم وما يكلمهم إلّا خدامها » ( ف 70 ) وفي هذا القول حكم معياري تهجيني ، يفهم منه أن الدّين هنا دين فاسد لأنّه دين شرك وبأستثناء هذين الحكمين فإنّ موقف الرحّالين يتسم بالموضوعية والتسامح ففي

---

(26) ظهر هذا الدّين بالصّين في القرن السّادس أو الى الخامس قبل الميلاد وكتابه عنوانه " أحاديث " وهو مجموعة أقوال كنفوسيسوس فيما يبدو جمعها تلامذته .

(27) نسبة إلى الكتاب الأمّ لهذا الدّين Tao to king وهو مجموعة من القواعد المهدّدة لبلوغ المثّل الأعلى في الحكمة وقد ظهر هذا الدّين هو أيضا في القرن السّادس أو الخامس قبل الميلاد والهندوكية والبودية والكندوسيانّة والتاووية أدیان غير سماوية .

أخبارهم تبرز حضارة الآخر المادية وغير المادية فللهند الفلسفة والطب وعلم النجوم وللصين علم النجوم والطب ( ف 72 ) والعمارة بالصين والهند ثابتة الأركان فالمدن كثيرة والفلاحة مزدهرة والصناعة تدلّ على تقدّم تقني هام ومهارة فائقة وبالصين نظام سياسي وإداري محكم يضمن الاستقرار والأمن وبها أيضا تمارس سياسة اجتماعية عادلة ويتجلّى التسامح في وصف العادات فحتى تلك التي من شأنها أن تثير فيهم الاستغراب والتشنيع مثل حرق الميت وتخنيطه ثم دفنه بعد سنة بالصين فهي تذكر في لهجة هادئة ودون أي تعقيب أو تهجين .

على أن هذا لا يعني أنّ نظرة الرحالة تحرّرت من قيود الذات وأنّ الانفتاح على الآخر كان محلياً فبالإضافة إلى قيد الدين الذي حال دون فهم معتقداته وثقافته في معنى الكلمة الشامل يتجلّى انشدادهم إلى الإسلام أمة وثقافة في عدّة مواطن من ذلك اهتمامهم كما رأينا بعلاقة البلدان الأجنبية بالعالم الإسلامي وبوضع المسلمين بها وعنايتهم في مجال التجارة بما يمكن أن يجنيه عالمهم من الشرق الأقصى <sup>(8)</sup> ويظهر التمرّكز على الذات كذلك في عملية تسجيل المعطى التي تمرّ عن وعي أولا وعي عبر مرجعية نظامهم الثقافي إذ تكثر المقارنات الصريحة والضمنية فمن المقارنات الصريحة قولهم « فأما الصين فعطأؤهم | للجند | كعطاء العرب ، ف ( 72 ) وقولهم « وهم [ الهنود ] يستعملون المسواك كالعرب ، ف ( 72 ) والمقصود بالعرب المسلمون . ومن المقارنات الضمنية ، ولا يختنق أهل الهند والصين « ( ف 72 ) وأهل الصين « لا يلبسون العمام ، ( ف 21 ) وقولهم « والهنود لا يشربون الخمر تدينا بل أنفة ، ( ف 46 ) .

---

(28) في مجال التجارة لا يعنى الرحالة إلا بما يستورده العالم الإسلامي من الشرق الأقصى وكأنّ هذا الأخير لم يُوجد إلا لتزويد البلدان الإسلامية بما تحتاجه فلا حديث عن صادرات العالم الإسلامي إلى الشرق الأقصى ولا عن التبادل التجاري بين البلدان الأجنبية المذكوّة باستثناء حالة واحدة تخصّ واردات الصين من الأقاليم المجاورة ( ف 34 ) .



لكن التمرکز على الذات قلما يفضي إلى الاستعلاء والتحقير وهذا الموقف نادر في القرون الوسطى التي اتسمت بالتعصب الديني ورفض الآخر .  
وأخيرا نودّ الإلحاح على أمر وهو أن هذا العمل عمل جزئي يندرج في ميدان واسع فمحاصرة نظرة المسلمين إلى العالم الأجنبي في القرون الوسطى تتطلب عدّة دراسات محدّدة بالزمن وخاصة بفئات إجتماعية مختلفة لأنّ النظرة بحكم انتماءات المخبرين وآفاقهم الفكرية تختلف على الأقلّ في بعض جوانبها فلا يمكن أن نتحدّث بصفة موضوعية عن التواصل أو التغيّر في هذه النظرة مالم تنجز هذه الدراسات .



## دكتوراه الدولة ( تابع )

الإسم	الموضوع	تاريخ المناقشة	الجامعة
فيصل الغول	La police parisienne dans la seconde moitié du XVIII siècle ( 1760-1785 )	15 ماي 1993	جامعة ران II ( فرنسا )
منيرة شابوطو الرمادي	Etre Mamluk au XIIIe et XIVe siècles J C	10 نوفمبر 1993	جامعة أكس ان بروفانس (فرنسا)
محمد توفيق النيفر	الحياة الأدبية في افريقية في العصر الفاطمي ( 296 هـ - 362 هـ )	13 أبريل 1994	جامعة تونس I
فرحات الدريسي	الكيمياء والكميائيون في التراث العلمي العربي الإسلامي من القرن الثاني إلى القرن الثامن الهجريين : مشروع قراءة التراث العربي الإسلامي الكيمياء نموذجاً .	20 أبريل 1994	جامعة تونس I
كمال عمران	الانسان ومصيره في الفكر العربي الإسلامي الحديث من النصف الثاني من القرن التاسع عشر ميلادي إلى الحرب العالمية الثانية .	27 أبريل 1994	جامعة تونس I
سمير المرزوقي	Le Bestiaire de Guillaume Apollinaire	27 أبريل 1994	جامعة كلارمان II فاران ( فرنسا )